عبد الرحمن الربيعي

البطل والمدينة

بلغ عادل منطقة السيارات في « الباب الشرقي » ، وكان صراخ السائقين يتردد مناديا باسماء الاماكن التي تقصدها سياراتهم . كان يحشر يديه في جيبه ويطرق مسرعا للاحتماء من البرد اللاسع الذي عسكر في بغداد اخيرا .

واستشف الامان من رؤية الوجوه المحتشدة وهي تطرز هذه الساحة العريضة ، وجوه عمال وباعة ومستخدمين في دوائرالدولة وسواق سيارات .

كان الصبية يستقبلون الراكب قبل ان يدلف الى فسحة السيارات سائلين عن المكان الذي يقصده ، وكانت السيارات تزدحم بسرعة وتاخذ طريقها بصعوبة في احد الطرق القريبة والتي تقود الى كل مناطق المدينة .

وقد اعتاد عادل هذه الطقوس اذ انها جزء من منهاج حياته اليومية وهو يحلم بشراء سيارة يوما ليحسم كل متاعب السير والتنقل .ووجد ان الازدحام اليوم اشد مما اعتاد ان يراه ، كثير من الرجال والصبية يركضون ملبين نداء بعض سائقي السيارات المرصوفة جوار سياج حديقة « الامة » . وكان صوت المنادين يأتيه :

ـ ملعب .. ملعب الشعب . .مباراة المصارع العظيم فوزي البغدادي .

وامسك احد الصبية بكم عادل ليقوده الى هناك وهو يتمتم :

ـ عمي .. للساحة ؟

فسحب عادل كمه من يد الصبي وهو يطلق شتيمة حادة طاش وقعها وسط الصراخ والتهريج المهيمن على الساحة المقرورة .

وسأل عادل عن السيارة الذاهبة باتجاه « الصالحية » فأخبره احد الواقفين ان ينتظر فكل السيارات قد عبئت بأنصار المصارع وذهبت الى الملعب . ولم يطل به الوقوف عندما لمح صديقه ناصر السعدي .

ـ مرحبا ناصر .

ـ اهلا عادل

ـ يالها من صدفة !

ثم اضاف :

ـ يقال ان لا سيارات باتجاه « الصالحية » اليوم !

ـ لننتظر .

اطلق هذه الكلمة ثم استل يده المقرورة من جيبه ناظرا الى ساعته ثم اعادها الى جيبه ثانية . ودندن قائلا :

ـ انسيت : ان المصارع العظيم فوزي البغدادي ينازل خصمه الفرنسي في ملعب الشعب ؟ اسمع ! كل المدينة ستكون هناك .

وكانت نبرة السخرية واضحة في كلماته . اما وجه ناصر النحيف فكان هادئا وشاردا بعض الشيء وقد احال البرد بشرته البيضاء الى حمرة براقة .

واردف عادل مواصلا احتجاجه :

ـ أتدري ؟ ان المسألة ليست مسالة اعتيادية بالمرة ، اناس يتركون اعمالهم ويهرولون وسط هذا البرد لينحشروا في ساحة عريضة مكشوفة للريح والقمر .. ماذا تسمي هذا ؟

ثم اضاف :

ـ لماذا ؟ لانهم سيشاهدون وليمة دموية من الضرب والركل .

بعد ذلك اخذ يتطلع الى وجه ناصر ، وقد دس يديه في جيبه هو الاخر ، وقارب ما بين قدميه ، وكان البرد يحدث فيجسمه اهتزازة متوترة يبدو فيها وكانه يتهيأ للقفز الى اعلى بكل طاقته.

قال ناصر وقد بدا شارباه وسيمين ومتممين للبسمة الناعمة المرتسمة على وجهه :

ـ انها كذبة اخرى يا صديقي ، تجد من يصيبه هوسها .مدينة مسكينة تفتح ساقيها مسرعة .

واعطى رد ناصر الى عادل حماسا جديدا ليواصل هذا الحديث الذي توزعته المدينة منذ حلول هذا المصارع في بغداد ، البعض معه، لا يلبث ان يعلن انه مفخرة للعراق والامة العربية ، والاخر يحتج، ولكن الكذبة كانت اكبر من ان توقف عند حد .

ومضى ناصر مردفا :

ـ البحث عن بطل لنتوجه ، هذه عقدتنا. اختلفت الساحات والاسباب ، لا فرق ابدا ، حتى لو كان مصارعا دجالا ينقل الى ملاعبنا طقوس ملاهي الدرجة العاشرة في اوروبا .

وكان ناصر يدور بعينيه وهو ينطق بتشخيصاته هذه منتظرا طلة السيارة الموعودة لتقله الى « الصالحية » . وكانت نظراته تحط على اسراب المواطنين وهم يركضون باتجاه موقف السيارات الذاهبة الى الملعب ، وكان البعض منها قد اعلن ولائه وتأييده للبطل بلصق صوره وهو يظهر عضلات صدره وذراعيه ، او وهو يقبض بقوة على عنق احد خصومه الذين قدموا من بلدان اوروبية مختلفة وقد غلبهم متتابعين ، وامتلك المدينة كلها ، الصغار والكبار ، القرى والاسواق ، صوره في كل مكان ،والصحف تفرد ملاحق خاصة عنه ، والتليفزيون ينقل كل مبارياته ، ويقدمه في ندوة بين فترة واخرى متحدثا عن خصمه الجديد ،وعن بأسه واعدا بانه سينتصر عليه ان شاء الله .

هز ناصر يده وهو يقول :

ـ يبدو اننا لن نجد سيارة اليوم .

وعلق عادل بمداعبة :

ـ الا يلذ لك مراقبة هذه الطقوس ؟ راقبها جيدا وستمسك بالمدينة وهي في اوج ضلالها .

ـ وما فائدتي من ذلك ايها العزيز ؟

واضاف :

ـ انني اغرق في المي وخجلي كلما شاهدت هذا . .لماذا نسرق هكذا بسهولة ؟ متى نكف عن بحثنا عن الطواطم والالهة المجهولة

حتى لو كان ذلك في جسد رجل رياضي ؟ انظر .

واشار بيده الى صورة كبيرة للمصارع وهي تتوسط الحديقة الصغيرة المواجهة لساحة « التحرير » ، وكانت مرسومة على قماشة كبيرة ملتصقة على هيكل من الخشب، وكانت تظهره وهو يتاهب للوثب على خصمه .

وعندما رفع عادل عينيه وجد الصورة عالية وطويلة تعادل حجم صاحبها الحقيقي مرتين ، وقد تحلق حولها صباغو احذية وباعة بطاقات اليانصيب ومتسولون وجنود ومواطنون اخرون يمرون مسرعين فيدفعهم الفضول للاصطفاف مع الناظرين وتامل هذه الصورة التي برع راسمها في تجسيد فتوة وعضلات البطل .

واستمر ناصر في اعلان استنكاره :

ـ اذهب الى هناك وانظر الى وجوه هؤلاء المتجمعين ، اقرا الحماس الغبي والانبهار المسكين وهو يرتسم عليها .

فرك عادل يديه بقوة وهو ينظر صوب سيارة توقفت على مقربة منهم ، ونزل السائق وهو ينادي :

ـ صالحية .. صالحية .

وهرول الركاب متدافعين ليأخذوا مكانهم فيها ، ودس عادل جسده في زاوية المقعد الخلفي ، وتبعه ناصر صاعدا بخفة ، وبدات السيارة تشق طريقها بصعوبة وسط سيارات النقل الاخرى وعربات الباعة واجساد العابرين ، ثم انطلقت بعد ذلك ودارت حول ساحة « التحرير » وبدأت بعبور جسر « الجمهورية » بتؤدة .

وابتدأ الركاب حديثا كان موضوعه المصارع فوزي البغدادي ايضا. قال عامل مقرور وهو يتلفع بيشماغه :

ـ سينتصر فوزي البغدادي بعون الله.

وتبعه عامل اخر كان يرتدي معطفا عسكريا تلتمع ازراره الصفراء:

ـ بقوة الله ، وكل الائمة الصالحين .

لكز عادل ناصرا بكوعه وهو يتمتم :

ـ هذه مدينة فوزي البغدادي فقط .

وضحك ناصر :

ـ الداء يعم ، انه وباء وعدنا به .

وهنا ارتفع صوت السائق :

ـ ساوصلكم خلال دقائق ،اريد ان اشاهد المباراة، وحق الكعبة الشريفة لم اترك مباراة لبطلنا العظيم دون ان احضرها ، رايته وهو يلوي اعناقهم .. كريانكو .. فريدي .. بوب روب . روكامبل ـ كلهم كلهم .. سينتصر فوزي البغدادي ان شاءالله ، سيجندله مثلما جندل كريانكو وجره من لحيته على الارض .

ونطق راكب لم ير عادل وجهه بصوت يهزه البرد :

ـ بارك الله فيك .

قال عادل :

ـ لقد انتهت احاديث المدينة اليوم ، واستقطبت في حديث واحد.

ثم حك شعره وهو يضيف :

ـ حدثني موظف معي يسكن حي الثورة ، قال بان فوز البغدادي في اية مباراة تعقبه زغاريد النسوة ونحر عشرات الذبائح ، عمال مساكين لا يمكلون طعام يومهم يفعلون هذا ! تصور !

ضحك بعد ان فرغ من كلماته هذه وهمس في اذن ناصر :

ـ لا اكتمك سرا ان قلت بانني قد شاهدت كل مبارياته .

وازدادت ضحكاته صخبا وهو يضيف :

ـ ولكن في التليفزيون فقط .

ولم يجد ناصر كلمة فدس يده في جيبه مستخرجا علبة سجائره وبدا يتطلع من نافذة السيارة ، وكانت الشمس قد بهت نورها المعانق لواجهة الابنية العالية ، وبدا الجو واعدا ببرودة اخرى .وتمتم ناصر :

ـ المسالة ليست هينة يا عادل وليست نكتة . نحن مهووسون في بحثنا عن ابطال . ونخلقهم دوما من ضلالنا ومن وقائع حياتنا الملأى بالانكسارات ، واذا بقينا هكذا سيأتي مليون فوزي البغدادي وفي مليون مجال اخر .

اخذ نفسا من سيكارته ليكبح فورة صدره ، وظل في تطلعه من زجاج السيارة حيث تمرق كالسهم بين البيوت والاجساد المقرورة والكلاب وسيارات النقل الاخرى .

وجمع ناصر حزنه وانبس به في وجه عادل :

ـ لقد فقدنا البطولة في ساحتها الحقيقية ، وانزوينا هكذا لنجد التعويض اليوم في عروض مصارع !

وعقب عادل :

ـ وهكذا سلبنا في عز الظهيرة !

ومسح انفه المحمر من البرد وهو ما زال يواصل القول :

ـ الا ترى بانه مجرد فضول وحب للرياضة ؟!

ـ انني ارفض كل هذا .. انه مخدر وحلم يداعب الرؤوس الخاوية التي فرغت من قناعاتها تدريجيا ، انظر المباراة واسمع الصراخ المهووس ، انها تأصيل للسادية ايضا . شبان صغار يرفعون اصواتهم مناديين المصارع بأن يكسر ساق خصمه او ظهره ، ماذا بعد هذا الزرع يا عادل العزيز ؟!

واجاب عادل بنعومة :

ـ ماذا بعد ؟ لقد وصلنا الى الصالحية .

ثم رفع صوته مخاطبا السائق :

ـ نازل .

وبدأت سرعة السيارة بالهبوط حتى ارتكنت على الرصيف وهبط عادل وناصر من بين زحمة الراكبين .

وعندما صافحت اقدامهما الشارع تركاها تضرب فوق اسفلت ارصفته المليئة بحفر عمال المجاري ، وكانت الشمس قد انسحبت تماما من السماء ولم يبق منها الا وهج خفيف في أعلى البنايات المواجهة لمبنى الاذاعة .

تساءل عادل :

ـ الى اين ؟

ـ لا ادري : لقد بكرت في العودة الى البيت ، انتابني ملل فظيع ، قلت لاعد وانفق ليلتي مع اطفالي .

واقترح عادل قائلا :

ـ ما رايك بلعبة طاولة ؟

صمت مفكرا بعض الوقت ثم اجاب :

ـ لا بأس .

واختارا مقهى « القناديل » ودلفا اليه ففاجاهما الصراخ والتهريج وهو ينطلق من افواه الرواد المتجمعين حول التليفزيون لمشاهدة مباراة المصارعة .

وقف ناصر كالمنصعق ، وطرح من عينيه الذابلتين نظرة الهورثاء، دارت حول الاجساد المستلبة الصارخة ببلاهة ، ثم عادت الى وجه عادل وتوقفت هناك بعض الوقت ثم تبددت .

قال عادل :

ـ لا خلاص يا صديقي !

واجابه صوت ناصر :

ـ لنذهب الى البيت .

واستحوذت على صوت عادل لهجة مرح مفاجيء وهو يهمس في اذن صاحبه :

ـ ولكنك ستجد اولادك وقد فتحوا التليفزيون لمشاهدة المباراة ايضا .

بغداد